خاتمة السنة السابعة

باسم الله وحده نختم الجزء الرابع والعشرين من هذه السنة كما افتتحنا أول جزء منها باسمه جل ثناؤه ، وحمده وشكره عظمت نعماؤه ، فله الحمد أولا وآخراً ، وباطناً وظاهراً ، بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون

قلنا في فاتحة هذه السنة ان المنار دخل في سن التمييز بالنسبة الى الأشخاص . ذلك أن للأعمال أطواراً كأطوار الناس — طفولية ومراهقة وشبابا وكهولة وشيخوخة ، وان العامل ليتقلب في أطوار عمله فيكون في أوله كالطفل أو الغلام الصغير ، وان كان في علمه أو سنه كالشيخ الكبير ، لان حياة التجربة والخبر ، غير حياة النظر والفكر ، وانا لم نقل إن المنار دخل في سن التمييز تواضعا كما يقال ولا عنينا به الخروج عن حدود الخطة التي اختططناها ، أو السبيل التي أشرعناها له وذكرناها بالايجاز في فاتحة العدد الاول من سنته الأولى فان من راجع تلك الفاتحة يعلم ان كل ما كتب في السنوات السبع تفصيل لاجمالها ومن سنة الله تعالى في هذا النوع أن كتابة العلم آلة لاخراجه من حيز الاجمال والابهام ، الى حيز التفصيل والايضاح ، وأن من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم ، كما ورد في الحديث الذي ذكرناه في تلك الفاتحة — وانما عنينا بالدخول في سن التمييز ان العمل تمام طبيعياً وانا أنشأنا نعرف في هذه المعاملة بيننا وبين الناس ما لم نكن نعلم من أمر الاستعداد للاصلاح الديني والاجتماعي ودرجات ارتقاء الاخلاق والافكار ومبلغ التعاون والتساند والاختلاف في ذلك بين أصناف الناس في قطر واحد والتفاوت بين أهل الاقطار المتعددة

طفولة المنار وتميزه

دخلنا في هذا العمل ونحن على غرارة الاطفال في معرفة الناس — اذا أظهر لنا أحد استحساناً اعتقدنا انه مستحسن ، وكنا مسرورين ، واذا بلغنا عن آخر استهجان اعتقدنا أنه مستهجن ، وكنا آسفين عاذرين ، ومتى رأينا من أحد ميلا الى نشر المنار أو الدعوة منه الى ما يدعو اليه ، وثقنا به وعولنا عليه ، ولم يكن في الفكر ولا في القلب شيء ، ألا ان الامة في حاجة الى الاصلاح وان حوادث الزمان أعدتها له في الجملة وأن الكلام في ذلك والدعوة الى ما يجب يزيدان الامة استعدادا لما به تكون أمة عزيزة ويكون عونا للساعين في سبيل نهضتها ، والعاملين لتكوينها وعزتها .

بدا لنا من فضل الله تعالى ما كنا نرجو ونحتسب وفوق ما كنا نرجو ونحتسب ، فقد انتشر المنار في جميع الاقطار ولا يزال انتشاره في نمو مستمر من غير سعي ولا دعوة تذكر

وبدا لنا من الناس ما علمنا به علم تجربة واختبار أنه لا ينبغي أن يوثق بكلام أحد في أمور المجد والاعمال العامة التي لاحظ فيها لأهواء الأفراد إلا من شهدت له الأعمال والاخلاق بالاختبار الصحيح وقليل ماهم ثم قليل ماهم، وأنه لا ينبغي لمن لا يتبع أهواء الامراء والرؤساء والاغنياء أن يرجو من أحد مساعدة على خدمة الملة والامة بل يجب أن يحتمي ويحذر من إيذائهم وفتنهم

بدا لنا أن من يريد أن يخدم دين الله وعباد الله دون العظماء المترفين يجب عليه أن لا يعتمد في نجاح عمله إلا على تحري الحق والخير والعلم بحاجة الامة الى خدمته وبأن الاحساس والشعور بهذه الحاجة قد دب في نفوس كثير من افرادها وان حركته فيها حركة حية ولا علامة للحياة إلا النمو والزيادة — هذا هو الاساس المتين الذي يجب البناء عليه ولا يشترط معه للنجاح الا حرية العامل وثباته فتى صادف الداعي الى الحق حرية وثبت على عمله فان فضل الله تعالى كافل له بالنجاح وغماً عن أنوف المبطلين الذين يتعقبونه يضعون في طريقه العقب ويبغونه العوائر، «ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز»

الدعوة الى المنار

بدا لنا ان الدعوة الى العمل الذي يعمل للأمة لا يرجى نفعها الا ممن يعتقد نفع ذلك العمل ويشعر بدافع من الغيرة يدفعه الى الدعوة، ولقد كنا نعرف هذا نظراً واستدلالا ولكن ذلك لم يصدف بنا قبل الاختبار عن الاغترار بأناس مدحوا على هدى، ثم عادوا فذموا عن هوى، وأناس أقبلوا على علم، ثم أعرضوا بغير عذر، وعن الرجاء بمن عهد الينا إرسال المنار الى اشخاص على انه كفيل بالتحصيل منهم ومرت السنون، ولم يأت شيء من الكافل ولا من المكفول، وقد وقع لنا هذا من غير واحد ولم يكن ذلك مخادعة بل كان سعيا في النفع ولكنه غير مستوف للشرط فكان ضارا من حيث ينوى به النفع فلا صحابه الشكر على نيتهم الاولى والعذر على اهمالهم الاخير. ولولا أن كتبنا في المجلدات السابقة كلمات تظهر لنا انها كتبت بمداد الغيرة لنهينا على اغترارنا في آخر هذا المجلد ونصرح الآن بأن العبرة في مساعدة المنار على ما نقول بعد دون ما قلنا قبل تصريحاً أو تلميحاً وانما استفاد المنار من دعوة من رغبوا فيه عن اعتقاد ودافع من شعور الغيرة ودافعوا عنه بمدافعتهم عن اعتقادهم لا حبا في شخص منشئه ولا إرضاء لبعض محبيه، دعاة المنار وانصارهم أسلم الناس من الظنة، وابرأهم من التهمة، وابعدهم عن الهوى،

واقربهم بفضل الله من الهدى ، اذ لا مجال للنوال ، ولا مطمع في جاه أو مال ، ولا وسيلة الى رتبة أو وسام ، ولا رجاء في مدح ولا خوف من ذام ،

مقاومة المنار

للمنار خصما ينفرون عنه ويذمونه فمنهم من يطعن فيه وينفر عنه بقضايا بعض محبيه ، ومنهم من يتجرم عليه تزلفا الى بعض مبغضيه ، ومنهم من يكرهه حسدا وموجدة ، ولا يكاد يخفى أمر هذه الاصناف على أحد الا من كان خالي الذهن غير مطلع على حقيقة امرهم وحقيقة ما يطعنون فيه . وان مقاومة امثال هؤلاء الناس — وان ضخمت أقلامهم — لا تضر الحق الا حيث يحرم الحق من الحرية كبلاد الاستبداد والظلم واما في بلاد الحرية فانها تكون اكبر نفعا له واعون على نشره واعلاء شأنه من المدح والاطراء لان النفوس لا تتوجه الى ما يمدح ويدعى اليه الا بعض توجهها الى ما يذم ويصد عنه ، وانما يعرف الحق بالتوجه اليه ، والاطلاع عليه ، ولذلك تجد أهله لا يجزعون من المناصبة ، ولا يحفلون بالقيل والقال ، ولا يبالون بعمل اهل الكيد والمحال ، وان تفننوا في الاعتداء ، وبالغوا في الافتراء ، وتجد اهل الباطل يجزعون من ذكر اعمالهم ، ويضطربون من معرفة الناس لاحوالهم ، فيبذلون المال لكذبة المؤرخين ، وللشعراء الغاوين ، ليلبسوا الحق بالاباطيل ، ويشغلوا الاذهان بالخلابة والتخييل ، وسيكون التاريخ حكما بيننا وبين من تصدى للمنار من هؤلاء في الدنيا والله خير الحاكمين

ومن الناس من يمقت المنار لان مباحثه ومسائله تبين للناس ما هم عليه من الاباطيل التي اتخذوها وسيلة للرزق وجمع المال ، وسلما للصعود في مراقي الشرف والجاه ، كبعض الدجالين الذين يدعون الولاية والقرب من الله والوساطة بينه وبين عباده يقربونهم اليه زلفى ، ويدفعون عنهم البلاء ، ويستنزلون لهم النعماء ، وكسدنة القبور ، وأكلة النذور ، وكبعض اصحاب الجرائد الذين يخادعون الناس بما يوهمونهم من الدفاع عن بلادهم ، والذود عن حقيقتهم ، والدعوة الى حفظ شريعتهم ، وهم لا شأن لهم في امور البلاد ، ولا قيمة لكلامهم عند اصحاب السلطة والنفوذ ، ولا معرفة لهم بأمر الدين فيقرروا عقائده ، أو يدفعوا الشبه عنه ، او يبينوا حكمه للجاهلين ، ويذكروا بهدايته الجاهلين ، وهؤلاء يعذرون بعداوتهم لنا في دنياهم ، ولا يبالون بأمر اخراهم ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ،

ومن الناس من ينفر من المنار ويصد عنه لانه يخالف رأيه او مذهبه في بعض المسائل — وما آفة الاولين والآخرين الا العداء بالخلاف ، ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ،

فلا خروج من الخلاف خالفنا رأيهم او مذاهبهم ولكننا لم نبغضهم ولم نعاديهم بل نحبهم من حيث يكرهوننا ، ونحترمهم وان كانوا لا يحترموننا ، ونعذرهم وهم لا يعذروننا ، ولعلنا بهذا نتفضلهم ونود لو يساوننا او يفضلوننا ، وهذا الصنف على قسمين مقلد جامد لا يقرأ ولا يبحث ولا يطالب بدليل بل يذم ويعيب لانه سمع من يفعل ذلك فصدقه وتبعه ، وذي رأي ونظر يقرأ ويبحث ولكنه رأى ما يخالف اعتقاده فظنه ضارا فكرهه وصد عنه ، وهذا الفريق يكاد يكون نادرا في امتنا لهذا العهد الذي قال في اهله الشاعر

غوينا فلا الداعي إلى الخير يبتغا ... يعاد ولا الداعي الى الشر يخذل

بل كثيرا ما نرى أناسا يخذلون داعي الخير لا قل شبهة ، ويعينون داعي الشر والفتنة ، ولنا مع من يكره المنار لمخالفة رأيه كلمات ثلاث نقولها في خاتمة هذه السنة

(الاولى) من البديهي ان الخلاف في البشر طبيعي ولا يكاد يوجد اثنان يتفقان في كل شيء حتى في الامور العامة الظاهرة فمن الجهل ان نجعل امرا طبيعيا لا مفر منه سببا للتعادي والتباغض لان ذلك يجعل هذا التعادي دائما مستمرا في الامة وما استمر التعادي في امة الا وكانت من الهالكين

(الثانية) إن الذي يخالفك في أمر من الأمور العامة بأن كنت تخشى ضرره إذا نشر وهو يرجو نفعه يجب عليك أن تتروى في أمره فلا تقدم على عداوته والصد عن عمله لئلا تكون صادا عن الحق والخير من حيث لا تعلم بل عليك أن تنظر في رأيه بامعان وإنصاف فان ظهر لك خطأه فاكتب إليه واوكله بما ظهر لك لينشره حيث ينشر رأيه فإما أن تقنعه وترجعه واما أن يقنعك ويرجعك واما أن يعرض الرأيان على الناس فيكونوا هم الحاكمين وأي ذلك كان ، فهو خير من التنازع والخصام ، ولا ينبغي لك أن تخاف على حقك من باطله اذا هما تصارعا معا فانه ما تصارع شيئان إلا وغلب أقواهما أضعفهما والحق اقوى من الباطل فاذا قذف به عليه دمغه فاذا هو زاهق

(الثالثة) أولى الناس بأن يعامل هذه المعاملة من تدل حاله على أنه يعتقد ما يقول وانه يرجو النفع والافادة للأمة، ويخلص لها الخدمة. ومن آية ذلك ترك الدهان والتقرب الى الذين ينال المال والجاه بالتقرب اليهم واتباع أهوائهم والعدول عن ذلك الى ما يسيء للمبطلين من الخاصة، ولا يوافق أهواء العامة. وآية أخرى أكبر من أختها وهي انه ينادي دائما بأنه يقبل كل اعتراض وانتقاد وينشره كما ينادي في كل عام

ضروب الانتقاد على المنار

الانتقاد على المنار على ضربين انتقاد خطة وانتقاد مسائل . فأما الأول فمن الناس من يرى أنه لا ينبغي للمنار الخوض في السياسة وأول من صرح لنا بهذا الرأي الشيخ محمد عبده عند اطلاعه على أول عدد صدر من السنة الاولى ثم انار أينا رياض باشا على هذا الرأي أيضاً وذلك ان هذين الشيخين الكبيرين يعتقدان أن خوض الجرائد في السياسة قد أضر بهذه البلاد ويودان لو يكون المنار الذي يعتقدان نفعه بعيداً عنها وقد ذكر لنا كل واحد منهما رأيه غير مرة ولكن السياسة فتنة الملايين وإنه ليصعب على الانسان أن يرى الاهواء تعبث بالامور العامة ويرى أهلها يخفون الحقائق ويموهون على الناس ويغشونهم وهو ساكت لا يجهر قولا ولا يكشف لبساً . على أننا قلما نقصد الى السياسة ونحن فيها وانما نذكر في باب الاخبار والآراء أحياناً بعض المسائل التاريخية والجوانب الطارئة ونذكر وجه العبرة فيها والعبر التاريخية كلها سياسية على أنهما يعنيان السياسة المصرية وهذه قلما نعرض لها أو نلتفت اليها . ومن الناس من ينتقد ذكر الاخبار والادبيات في المنار زاعما انه مجلة دينية لا ينبغي التعرض فيها لغير مسائل الدين وجواب هؤلاء مكتوب على غلاف المجلة منذ وجدت وهو «مجلة علمية أدبية تهذيبية ملية أخبارية »

مسلك المنار السلفي

ومن هذا الفريق من ينتقد على المنار اتباع طريق السلف في الاستدلال على المسائل بالكتاب والسنة ويسمون هذا اجتهاداً ويقولون إن منشئ المنار لا تسلم له دعوى الاجتهاد . ونجيب هؤلاء من وجهين (أحدهما) أن المنار يتكلم في مسائل الدين في أبواب منها باب التفسير ولا ينبغي لمسلم أن يقول انه يجب أن نجعل أحد المذاهب أصلا ونرجع القرآن اليه ونحكمه فيه بل الواجب اعتقاد أن القرآن هو أصل الدين وأساسه، وينبوعه ومصدره، يرجع اليه كل شيء منه وهو لا يرجع إلى شيء لانه فوق كل شيء . ومنها باب الفقه والفتوى وهما موضوعان لبيان حكم الدين وأسراره ودفع الشبه والاعتراضات عن الاسلام وإقامة الحجة على المتهاونين بأحكامه وليس يضر الاسلام والمسلمين أن يكون بعض المسائل الاجتهادية في بعض المذاهب معتمداً أو غير

ظاهر الحكمة أو غير معمول به اذ لا بد من هذا وانما يضرنا أن يتوجه الانتقاد الى أصل الكتاب والسنة وأن يكون هذا الاصل مخالفاً للبرهان العقلي في عقائده وللمصلحة في أحكامه . ثم ان المنار قد أنشئ لجميع المسلمين لا لأهل مذهب معين منهم والمسائل ترد اليه من اهل المذاهب المختلفة في الاصول والفروع وهم لا يسألونه عن مذهب معين الا نادراً وانما يسألونه عن أصل الدين وهو الكتاب والسنة ومن يسأله عن مذهب معين يجيبه عنه ان علم والا قال لا أدري بلسان المقال أو بلسان الحال وهو السكوت

(الوجه الثاني) إن رأي المنار ان الوحدة الاسلامية لا تحقق الا بالرجوع الى الكتاب والسنة المتبعة المجمع عليها في امور العقائد والعبادات المحضة كما كان السلف وان يكون الاجتهاد في المعاملات قائما على أصولها العامة مع مراعاة مصلحة الامة وعرف الزمان كما جرت المذاهب وعدم التفريط في مصلحة الامة لاجل موافقة مذهب دون مذهب وما نذكر من المسائل بأدلتها مع بيان حكمتها وانطباقها على المصلحة نريد به مع الرد على المنكرين بيان النموذج الذي نرى اتباعه جامعاً لكلمة الامة ومحيياً لنشأة الدين فيها ولا نلتزم في ذلك الا موافقة الكتاب والسنة وإجماع الامة فما كتبنا شيئاً يخالف هذه الاصول ولا القياس حيث لم توجد . فاذا كان نشر كل ما يخالف مذهبك أيها المعترض ضاراً فكتب التفسير والحديث ضارة لانها مملوءة بذكر الخلاف والادلة وكذلك أكثر كتب الفقه وللمنار اسوة بها

وأما الضرب الثاني وهو انتقاد المسائل فاننا ننشر في كل سنة ما يرد علينا منه ونذكر رأينا فيه وقد جاءنا في أواخر هذه السنة رسالتان احداهما من فاس ينتقد صاحبها فتوى نشرت في المنار والثانية من الهند ينتقد صاحبها المختصر ما كتبناه في مسألة اشتراط الولي في النكاح فلم نتمكن من الرد عليهما فأرجأناه الى أجزاء السنة الثامنة . وقد رأينا في جريدة الافكار البرازيلية انتقاداً على ما كتبناه في مسألة تعدد الازواج سنذكر خلاصته ونجيب عنه ايضاً

تقريظ المنار ومدحه

ذكرنا كل ما انتهى الينا علمه من الانتقاد علينا فان كان أحد يعلم انه كتب الينا شيئاً لم نذكره فليذكرنا به . ولكننا لا نذكر ولا نشير إلى تلك التقاريظ والثناء الذي يرد علينا من هذه البلاد ومن المشرقين والمغربين بل نثني على أهله ونشكر لهم حسن ظنهم وثقتهم بالمنار ودعوتهم اليه والله تعالى يتولى مثوبتهم أجمعين

مشتركو المنار

زاد عدد المشتركين في هذه السنة كالتي قبلها عدة مئين ونحن نرى أن قراءه خير القراء، وأقربهم الى الوفاء ؛ ولا يزال المنار مستفيضا بالثقة بوفائهم عن الوكلاء. الآن كثيرين منهم لم يرسلوا الينا القيمة انتظارا لوكيل يطالبهم فعسى ان يتفضلوا بارسالها حوالة على البريد او احد المصارف (البنوك) وقد شغل وكيلنا الفاضل بتونس في هذه السنة عن إنجاز وعده الذي ذكرناه في آخر السنة الماضية وهو يشكو من عسر التحصيل في البلاد البعيدة عن الحاضرة لما في إرسال المحصل اليهم من النفقة فنرجو من هؤلاء ومن جميع من لم يتيسر له التحصيل منهم ان يسعفونا بارسال القيمة حوالة على البريد كما نرجو من همته العالية إنجاز وعده بتسديد حساب السنين الماضية عن قريب

البريد

زادت شكوى القراء في هذه السنة من فقد أجزاء المنار وكثرت مطالبتهم للادارة بالسهم يصل اليهم . ومنهم من رد عمال البريد أجزاءهم زعما منهم انهم هم الذين رفضوها ثم تبين لنا خلاف ذلك وفقدنا في البريد رسائل ومطبوعات أخرى فلعل هذا الامر لا يعود لئلا يثلم شرف البريد المصري الذي رفعه مديره الهمام

السنة المقبلة

ومما أفادنا الاختبار ان تحامى الوعود الجازمة وانما نذكر ما نتوبه على انه بيان للعزم كعزمنا على العود الى انشاء المقالات الاجتماعية والفلسفية في الابحاث المفيدة كبحث (١) الشعور والوجدان ، والفكر والاذعان ٢ الاعداد والاستعداد ٣ تكون البيوت ٤ تكون الامم ٥ هلاك الامم ٦ الحياة الزوجية ٧ الحياة الملية ٨ الحياة الوطنية ٩ الزعماء والمصلحون ١٠ ايذاء المصلحين ١١ الاستقلال والتقليد ١٢ التعاون والتخاذل ١٣ تنازع البقاء ١٤ الحياة والموت ١٥ الفقه والحياة ١٦ الذكاء ١٧ الجنسية ١٨ الجمعيات ١٩ السياسة والسياسة ٢٠ الملك والخلافة ٢١ طغيان الاستقراء ٢٢ القوة والحق ٢٣ الدين والدنيا ٢٤ المال والجاه ٢٥ الدنيا والآخرة . وما أشبه ذلك

ونسأل الله تعالى أن يوفقنا فيما يأتي خير ما وفقنا له فيما مضى وان يقينا زلة القلم وملفظنا من سوء القصد في القول والعمل . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين